

سده أمهريت البرزاهه: (٥)

بين الوحوش والبهائم !

للأستاذ علي الطنطاوي

—•••••—

أيها الستممون الكرام . أنتقل بكم هذه المشية إلى بقعة في مصر ، جمت فيها عجائب البلدان ، وغرائب الحيوان ، فوضع فيها البحر بحيتانه وتماسيحه ، وأفراسه وسباعه ، والبر بصحاريه وغاباته ، وأسوده وفهوده ، ووعوله وغزلانه ، وأقيمت بها الذرى المخضرة من لبنان تتفجر منها الينابيع وتتصدر السواقي ، وتغني عليها البلابيل والشجارير ، ومدت فيها القفار الجرداء من الجزيرة تسمى فيها المها وتتسابق المبر ، والأحراج الملتفة من الهند تمشي

(*) كتب الحديث لحظة الشرق الأذن فنجك في مصر وأذاعته من يافا يوم (١٤) و (١٥) مايو .

فيها الفيلة ، والتلوج البسوط من القطب تخطو عليها الدببة . وعاشت فيها الحيات والثعابين إلى جنب الحمام والمصافير ، وصحبت فيها المزي الذئب ، والثعالب الدجاج ، والسباع البشر . وفيها (الجلالية) هذا الجبل السحور ، تدخل منه إلى مسارب منحوتة في الصخر ولا صخر ، وكهوف تتسلل فيها السيون ولا عيون ، وقاعات في باطن الأرض كأنما أعدت لتكون بخادع للحب أو محارِب للتأمل ، وكأنما هي أحلام شاعر قد تحققت ، وأمنية عالم قد تجسست ، وطرق ظاهرة وخفية ، تنقلك في خطوات من حر الصيف إلى برد الشتاء ، ومن جلوات الطبيعة في أعراس الربيع ، إلى خلوات النفس في نشوات الرؤى ، تلك هي (حديقة الحيوانات) .

وهي بمد هذا كله معرض للانسان ، ترى فيه طباعه وأزواؤه ، وخلاتقه ولغاته ، تسمع فيه أشتات الملاحظات ، وعجائب التمايقات ، تمشي مع الناس فتجد فيهم من يسير على هدى فيرى كل شيء ويقف عليه ، ويخرج وما قامه مشهد ، ولا ناله تب ،

تهادن إلا من يهادنها ، ولن تجامل إلا من يجاملها ، ولن تناون إلا من يعاونها ، ولن تمد يدها إلا إلى من يمد لها يداً نقيه من الغدر والفتك والتفاق .

الحرية حق طبيعي ، فنحن بالقوه ومدركوه شاءت الأمم أم أبت . والقوة الدافعة إلى طلب الحرية غريزة فطرية ، فنحن خاضعون لها حتى تحقق غايتها شاءت هذه الأمم أم أبت . والإنصاف طبيعة فينا ، فنحن سذنف أنفسنا وننصف من يعاشرنا ، رضى بذلك من رضى وكرهه من كره . وهذا كله شيء ليس لنا فيه خيار ، لأننا كدنا نموت ونريد أن نحيا . ونحن نتملق في حياتنا هذه كالجائع الشرف على الهلاك حين يتملق بكسرة خبز ورشفة ماء ، هي الحرية ، وأما هم فيريدون أن يتأثقوا ويتقبلوا ويتفاحموا باسم الحرية التي يريدون بها حرمتهم هم مقرونة بالاعتداء على سواهم من الشعوب المتلفة بالحرية أمثالنا نحن .

وسوف يأتي على الناس يوم وتظهر العرب ، وتعلم هذه الأمم كيف تكون الحرية ، ثم تقودها إلى هذه الحرية مرغمة كإيقاد الجمل

محمود محمد شاكر

وإما أن تنادروا بلادى . ثم ترفع كل الأدلة التي توضح كذب هؤلاء الكذابين من المرتزقة إلى حكوماتهم ، وأن تبرى ذمتها من دخيل لا يبرعى أدباً ولا خلقاً ، ولا يعرف قدره ولا أقدار الناس ! إننا نطلب الحرية وسننالها ، وسنكون أحراراً في بلادنا ندومها بالسياسة التي نرضيها لأنفسنا . ونحن لن نرضى لأنفسنا إلا الإنصاف ، ننصف أنفسنا ، وننصف من يعاشرنا من الأجانب . ولكن إذا ظن الأجانب أن هذا الإنصاف الذي لهم يذني أن يكون على ما تعودوه منذ خمس وستين سنة ، من امتهان المصريين ومن الفطرسه عليهم ، ومن بقائهم طبقة واحدة ترى أنها أنبل منا ، وأشرف منا ، وأحسن عقلاً منا ، وأولى بثروتنا منا ، وأحرى بالامتياز من كل مصرى يعيش على أرض مصر - فيومئذ سوف ننصفهم أيضاً ، ولكن بما نرضى به نحن غضبوا أو رضوا ، وضجوا أو سكتوا .

أما الدول التي تنادى باسم الحرية ، والتي تنكر على مصر والسودان ، وعلى فلسطين ، وعلى العراق ، وعلى بلاد المغرب كلها - أن تكون أمماً حرة ، فلتفضل ما تشاء ، لأن هذه العرب لن

حتى يظل بارداً ، لا تدخله الشمس ، فيظنه موطنه ، وموطنه هناك على حدود القطب الشمالي . ولكنهم لم يحدوه ، إنه ينظر فيرى قوماً لا يشبهون قومه ، إذ لم تستبد بهم فئة قليلة منهم ولم تظلمهم باسم المدل ، ولم تخرمهم باسم حرية الكلام ، ولم غلك دونهم كل شيء وتستمع بكل متعة ، بشرية ماركس ودين لينين ا
ودب أسمر صغير ...

يدور الأبيض النهار كله ، غضبان أسفاً لا يهدأ ولا يستريح فلا يصل إلى شيء ، ويلعب الأسمر بكرة من الحديد ، وبراوغ الحارس ، ويضحك النظارة ، كلاهما سجين ولكن هذا بنسى سجنه ، وذاك يذكره أبداً ، كالناس منهم من يذكر المصيبة ، ويدنبا من خياله ، فيراها أبداً أمامه ، ومنهم من (يخادع نفسه في الحقائق) فتصفو له الحياة .

والأبيض على جمال شكله ونعومة جلده ، ثقيل سمج ، والأسمر على قبحه لطيف خفيف ، لأن الجمال جمال الروح ، لا جمال الجسد ، قرب حسناء تنبو عنها القلوب ، وغير ذات حسن تهواها الأثثة ، وتناق بها الميون .

ووقفت على القردة ، وهي تمشي العمر كله مجلساً لمو وارب تقلد كما يقلد (قردة) البشر ، ولكنها تقلد فيما ينفعها وهؤلاء يقلدون فيما يؤذيهم ، وعلى الببناء وهي تردد ما يقال بلا فهم ، كهؤلاء الذين يبيدون علينا كل ما يقول الغربيون ، وعلى الحيات وهن ناعمت المس ، ناقمات السم ، كالصديق المخادع ، يُخادك ليخاتلك . ويهيك من قوله المثل وفيه من قبح مقصده الخنظل وصهرت على فئات الحيوانات على اختلاف أشكالها وألوانها ، رمطاعها ومشاربها ، من كل سائر أو سايج أو طاووس ، مما يجارب بمخلبه ونابه ، كالشجاع الأبي ، وما يدافع بسمته كالتمام المنسد ، وما يقاتل بثقل جسمه كقتال الروح من الناس والتنفذ وسلاحه شوكة كليلع اللسان ، بذى المنطق ، والسلفاة وسلاحها درعها كالنطوى على نفسه ، المتهم بصمته ، والطاووس وهو كالرأة سلاحه جماله وحسن منظره ... والذي يمشي في الماء نظيفاً مطهراً كالسمك ، والذي يتسل في اليوم عشر مرات كاللب ، والذي لا يطيب له العيش إلا في الأوساخ والقاذورات كالخنزير ، يافع فيها

ومن يدع اللوحات الدالة على الطرق ، والخراس المرشدين إلى المسالك ؛ ويسير على غير الطريق ، فيدور دوران السانية ، فيتعب نفسه ، ولا يعبر شيئاً ، ولا يخرج بفائدة ، فكأنه الرجل الضال الذي يترك هدى الأنبياء ، وحكمة الحكماء ، ويتبع عقله الأعوج وهواه ، فلا يسمد في دنياه ، ولا يسم في أخراه ، وتمر على حراس الحيوانات فتجدهم قد فرقت بينهم الحظوظ إذ سارت بينهم الوظيفة ، فخارس القرد والفيل واللب الأسمر ، يلعب حيوانه فيقف عليه الناس ، وتلقى عليه القروش ، فيتلى ويفتنى ، وحارس الخنزير لا يلتفت إليه أحد .

زرت الحديقة ، ومشيت مع الناس أنظر كما ينظرون إلى أنواع الحيوان ، وأرى فيهم أمثالها ، ولكنها قد تلفت بالثياب ، ففيهم أمد له بطشته وإن لم تكن له لبدته ، وفيهم ثعلب له حيلته وإن لم تكن له فروته ، ودب له غلظته ، وجمار له غفلته ، وطاووس له حَيْلَتُهُ^(١) وذئب له عدوته ، حتى وقفت على الأسد وهو يدور في قفصه متألماً في صمته ، صابراً في استكبار ، كأنه النابتة من الناس حبسوه في (قفص) من وظيفة صغيرة ، أو إفلاس شامل ، أو قرية متقطعة ، يلحظ الناس بطرف عينه يقول : آه ، لو كنت طليقاً في البادية يا أيها الـ . . . بشر ا ورأيت الحارس يخرج به إلى متزته : إلى القفص الضيق ، بمد القفر الواسع ، والتضاء الرحيب ، يذله بمعاه ، ويستطيل عليه بسوطه ، كما يستطيل الفرنسي اللثيم على الغربي الكريم ، ويذله بسيف العدوان وقوة السلطان ، وسمته يزار مقيداً ، كما يصيح المصلح في أمة أقسدها التقايد ، فلا يفزع من زئيره إلا الصبية الصغار ، ولو زار عند المرين تلحع هذى القلوب وزلزلها حتى قفزت من حناجر أصحابها . ووقفت على الفيل وقد تواضع ، حتى غرّ الناس منه لينته فسوا شدة ، وهان على أحدهم حتى أركبه صبيته ، وصرّفه الفيزال وأخذ له لبيته ، كما يطبع الرجل امرأته ، فيضيع رجولته ، وبقدم منزلته .

ووقفت على دين متجاورين ، أبيض كبير ، قد أخذوا له في قفصه من الجبس كهيئة الجليد ، ووجهها مسكنه إلى الشمال

(١) الحيلة : الجلاء والكبر .

كما يفعل الموظف الصغير الذي يعيش بحال الأمة إذا وقف عليه أحد أبناء الأمة يسأل حاجة ، أنه يظنه يسأل صدقة ، أو يطلب إحساناً ، أو الشرطي حين يلقى البائع السيار من أهل بلده ، وترجمان الاستشار حين كان يقابل واحداً من بنى قومه ...

فلما رأى ذلك منها ، بصق ومشى يلعن الحظ الذي جعل (الخير ...) سادة ، وأقام (الناس) لهم خدماً وخولاً وبكى على خلائق الجنس (الجماري) ، لقد ضاعت تلك الخلائق ، وهبطنا حتى صرنا مثل بنى آدم ، لانعرف أقدار أنفسنا ولا أقدار إخواننا.

وجهلت أعاود الحديقة ، وأكرر زيارتها ، فأرى هذه الخير محشورة في الزريبة ، تأكل وتشرب ، وتتمجب لماذا لا يقف عليها أحد ! إنها لا تلعب لعب القردة ، ولا تنقى غناء البلابل ، ولا تملك هيئة السبع ، ولا ضخامة الفيل ، ولكن لها فنسها وجمالها ، وما الفرق بينها وبينها ، إلا يقرأ الناس لأدعياء الرمزية ولصقاء الأدب ، ولصوص البيان ، كما يقرأون لأئمة البلاغة ، وملوك الكلام ؟ ولكن هذه (الفلسفة) لم تنفع أحداً فظل الناس معرضين عنها ، لا يحفلون بها . وماذا يبتغون منها ؟ وهل قلت الخير حتى ما تشاهد إلا بقرش صاغ ؟ إن الحمار يبقى حماراً ولو وضعته في القصور ، وأركبته السيارات ، وكووته الحرير ، وأطعمته الفستق المنتشر ...

حتى كان أمس فرايت القائمين على الحديقة ، قد عزموا على إخراج هذه الخير منها ، كي يوفروا على أنفسهم ثمن طعامها ، وينتفعوا بمجهودها وعملها ، ويحملوا الحديقة بإبصارها عنها ...

فعلت أن هذه آخرة كل (حمار) يتجاوز قدره ، وينسى أصله ، فليعتبر سائر (الخير) !

يا سيدات وباسادة . المفوز إذا لم أجد ما أحدثكم به إلا حديث الوحوش والخير ، فالحديث عنها ، أكثر فائدة ، وأسلم عاقبة من أحاديث الناس .

والسلام عليكم ورحمة الله .

على الطنطاوى

كما يبلغ القناب في أعراض الناس ، وينغمس انغماس الفاسق في حمأة الفجور ، وسبع البحر وهو أعلاها صوتاً ، وأضخمها زثيراً وأقلها غناء ، وأضعفها قوة ، كالجبان الفخور ، والجاهل المدعى ، وما ينحط على فريسته من عل كالنسر ، وما يأخذها قوة وانتداراً في وضح النهار كالأسد ، وما يسلك إليها المسالك المظلمة ، ويتسلل صامتاً خلال الحجارة وفي أصول الجدران كالحيات ، وعلى التزلان والمصافير ، وهى أبهى الحيوان فلا يقف عليها أحد لكثرتها ويقفون على حيوان قبيح لأنه نادر ، لأن قيمة الشيء بندرته لا بجمته ، ولولا ذلك لما كان الهواء أرخص شيء ، والألماس أغلاء .

... حتى مررت على طائفة من الخير محشورة في زريبة ، طائفة من حمير الشارع تأكل وتهز أذنانها ، تنافت ترقب المعاصنأهال عليها كما يرقب الدليل الهامة ، ويمجب إن افتقدها ، فلما لم ترها وعرفت أنها في أمان منها بطرت بطر حديث النعمة ، وترفت ترفع اللثيم يسود في غفلة من الدهر ، ونسيت ما كانت فيه كما ينسى غنى الحرب عهد الفقر ، ويأنف من السيارة الفورد وكان لا يجد عربة الكارو ، ويدخل أولاده المدارس الأجنبية وكان لا يعرف طريق الكتاب

يستخشن الخنزير حين يلبسه وكان يرى بظفره القلم وفكرت هذه الخير وقدرت ، فانتهى بها التفكير إلى أنها لم تمد حميراً وإنما صارت بشراً ، أليس في البشر (خير) ، فلماذا لا يكون في الخير بشر ؟

ومر حمار مكين ، يجر عربة مثقلة بالحشيش اطمام حيوانات الحديقة فنظر إليها ، فلما رآها ... أجفل وارتد ...

ما هذا ؟ خير مثله ؟ إنه يفهم أن يكون في الحديقة نسور وصقور ، وفهود ونمور ، وزرافات ونعام ، وأن يكون فيها حمير الوحش لأنها غريبة المنظر ، ببيدة الموطن ، نادرة الوجود ، أما أن يكون فيها حمير مثله ، تسمن وتخدم ولا تعمل ، فهذا ما لا يفهمه أبداً .

ووقف ونهق لما يحسبها ، فترفت عنه ، وتألت من تناولها عليها ، ومدت شفاهها الرقيقة ، وضمت أذنانها القصيرة ، ولوحت بأذنانها استنكاراً واستكباراً ، ونسيت أصلها وتجاهلت أفعالها ،